المنصور بن أبى عامر

للدكتور عبد الوهاب عزام

[مفخرة من مفاخر التاريخ العربى ، ومثل من الهمة الطامحة ، والنفس الهيامة ، والعزم الذى لا يفل]

— ١ —

ينتسب إلى قبيلة معافر إحدى قبائل اليمن. دخل جده عبد الملك بن عامر الأندلسى فى جند طارق بن زياد ، وأقام بعد الفتح فى الجزيرة الخضراء فكان له ولبنيه شأن ؛ واتصل أبو عامر جدّ المنصور بالخلفاء فى قرطبة ، وعدّت أسرة أبى عامر فى أسر الوزراء . وكان أبو حفص والد المنصور متألهاً زاهداً ، شغل بالحديث عن خدمة الخلفاء ، ومات قافلاً من الحج فدفن بمدينة طرابلس .

وأمّ المنصور من أسرة تميمية — أسرة بنى برطال —

ويقول القسطلى فى المنصور :

تلاقت عليه من تميم ويعرب ... شموس تلالا فى العلا وبدور
من الحميريين الذين أكفهم ... سحائب تهمى بالندى وبحور

— ٢ —

ونشأ محمد (المنصور) نجيباً ، طامحاً ، عظيم الهمة ، كبير القلب . أثر عنه أيام طلبه العلم بقرطبة نوادر تنبئ باعتداده بنفسه واستشرافه للمعالى . يقول محمد بن إسحق التميمى :

« كان محمد بن أبى عامر نازلاً عندى فى حجرة فوق بيتى ، فدخلت عليه فى بعض الليالى فى آخر الليل ، فوجدته قاعداً على الحال التى تركته عليها أول الليل حين فصلت عنه ؟ فقلت له : ما أراك نمت الليلة . قال : لا . قلت : فما أسهرك ؟ قال : فكرة عجيبة . قلت : فماذا كنت تفكر ؟ قال : فكرت إذا أفضى إلىّ الأمر ومات محمد بن بشير القاضى ، بمن أستبدله ، ومن الذى يقوم مقامه ؟ فجلت الأندلس كلها بخاطرى ، فلم أجد إلا رجلاً واحداً . فقلت : لعله محمد بن السليم . قال : هو والله ، لشدّ ما اتفق خاطرى وخاطرك »

وكذلك رشحته للمعالى نفسه العظيمة وآماله الكبيرة ، والمرء حيث يضع نفسه

«والحقيقة السادسة» أن المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل إسلامها وبعد إسلامها تدل على أن جانب الإسلام هو جانب الإقناع لمن أراد الإقناع

فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار ، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام ، واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوى الأمر والجاه

فإذا قيل إن المدعوين إلى الإسلام لم يقتنعوا بفضله سابقين ، فلا ينفى هذا القول أنهم اقتنعوا به متأخرين ، وإن الإسلام مقنع لمن يختار ويحسن الاختيار إلى جانب قدرته على إكراه من يركب رأسه ويقف فى طريق الإصلاح

ومن نظر إلى الإقناع العقلى تساوى لديه من يستميلك إلى العقيدة بتوزيع الدواء والطعام ، ومن يستميلك إليها بالخوف من الحاكم على فرض أن خوف الحاكم كان ذريعة من ذرائع نشر الإسلام

فالشاهد الذى تطعمه وتكسوه ليقول قولك فى إحدى القضايا ، كالشاهد الذى ينظر إلى السوط فى يديك فيقول ذلك القول : كلاهما لا يأخذ بإقناع الدليل ولا بنفاذ الحجة ولا يدفع عن عقيدته دفع العارف البصير

وصفوة ما تقدم أن الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع وسوّغته جميع الحقوق ، وأن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك : إلا أن يحال بينها وبين انتضائه أو تبطل عند أبنائها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها ، وإن الإسلام عقيدة ونظام ، فهو من حيث العقيدة قد نشأ وتأسس قبل أن تكون له قوة ، وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام فى أخذ الناس بالطاعة ومنعهم أن يخرجوا عليه .

عباس محمود العقاد

— ٣ —

صار محمد من أعوان قاضي قرطبة محمد بن السليم ، ثم تقلب في القضاء ، وجعل وكيلاً لعبد الرحمن ابن الخليفة المستنصر وأمه . ولما مات عبد الرحمن ، جعل وكيلاً لأخيه هشام ، ورتب له خمسة عشر ديناراً كل شهر

وعرف الخليفة قدر الرجل ، فكان ينـديه فيما يُعضل من الأمور ، ثم ولاه الشرطة الوسطى . ولم يأل ابن أبي عامر جهداً في التقرب من هشام وأمه صبيح ، وكانت ذات مكانة عند الخليفة

وعهد الخليفة إلى ابنه هشام فحرص ابن أبي عامر على أن يحتفظ لهشام بولاية العهد ، ثم الخلافة بعد أبيه ، على كثرة ما اجتهد المصقالبة في تولية المغيرة بن عبد الرحمن الناصر عم هشام

وتولى قيادة الجيش إلى غزوة نكص عنها كبراء الدولة ، ورجع منها مظفراً فزاد هيبة ومكانة . ثم ولي شرطة قرطبة فسيطرت على المدينة هيبته وعدله . فأمن الأخيار وسكن الأشرار

يقول صاحب البيان المغرب :

« فضبط محمد المدينة ضبطاً أنسى أهل الحضرة من سلف من أفراد الكفاة وأولي السياسة ، وقد كانوا قبله في بلاء عظيم يتحارسون الليل كله ، ويكابدون من روعات طرّاقه ما لا يكابد أهل الثغور من العدو . فكشف الله عنهم بمحمد بن أبي عامر وكفايته وتنزهه ؛ فسد باب الشفاعات ، وقمع أهل الفسق والدعارات ، حتى ارتفع البأس وأمن الناس . وأمنت عادية المتجرمين من رجال السلطان حتى لقد عثر على ابن له فاستحضره في مجلس الشرطة وجلده جلداً مبرّحاً كان فيه حمامه . فانقطع الشر جملة »

ولما رجع من غزاته الثالثة ظافراً رفعه الخليفة إلى الوزارة وجعل راتبه ثمانين ديناراً وهو راتب الحجابة ، ثم شارك أبا جعفر الحاجب ثم استبد بالحجابة عام سبعة وستين وثلاثمائة ؛ فقد بلغ أرفع مناصب الدولة

— ٤ —

سيطر ابن أبي عامر سبعة وعشرين عاماً على الأندلس كلها فصرف أمورها في الحرب والسلم كما يشاء ، ولم تجتمع أمور الأندلس في يد واحدة قادرة إلا يد عبدالرحمن الناصر ويدالمنصور ابن أبي عامر . فأما الناصر فقد ورث ملكاً ثبّته رأيه وعزمه ومضاؤه وإقدامه ، وأما ابن أبي عامر فقد رفعه إلى السلطان نفس طماحة وعزيمة ماضية وخلق مرير . ولم تكن هيبته في نفوس أعداء الأندلس دون هيبته في الأندلس ، فقد أولع بالغزو وانتدب للجهاد فغزا خمسين غزوة في شمالي الأندلس ، لم تنكس له راية ، ولا بعدت عليه غاية ، حتى بلغ (شنت ياقوب) في أقصى الجزيرة إلى الشمال والغرب ، وما طمع أحد من المسلمين قبله أن تنال همته هذا المكان القصيّ . لقد صدق صاحب البيان حين قال : « ثم انفرد بنفسه وصار ينادي صروف الدهر : هل من مبارز ؟ فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه فانقاد له وساعده . فاستقام أمره منفرداً بمملكة لا سلف له فيها . ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينكب قط في حرب شهدها ، وما توجهت قط عليه هزيمة ، وما انصرف عن موطن إلا قاهراً غالباً على كثرة ما زاول من الحروب ، ومارس من الأعداء ، وواجه من الأمم ؛ وإنها لخاصة ما أحسبه يشركه فيها أحد من الملوك الإسلامية . ومن أعظم ما أعين به ، مع قوة سعده وتمكن جنوده ، سعة جوده ، وكثرة بذله ؛ فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان »

— ٥ —

وكان المنصور عادلاً شديداً في الحق لا تأخذه فيه محاباة ولا شفقة ، ولا يعرف في إنفاذ الحق هوادة : « جاء إلى مجلسه رجل فناداه يا ناصر الحق لي مظلمة عند هذا الفتى — وأشار إلى أحد فتيانه — وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت . قال المنصور : اذكر مظلمتك ، ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية . وقال للفتى : انزل صاغراً وساو خصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك . وقال لصاحب الشرطة : خذ بيد هذا الظالم الفاسق وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم ينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق »

ولما عاد الرجل المتظلّم إلى المنصور يشكره قال له : « قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك . وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بعزلتي » . وعاقب الفتى وعزله

ما ثبت سلطان هذا الرجل الطماح المتسلّط المقدام إلا بهذا العماد من العدل والإنصاف وإيثار الحق على نفسه وخاصته

وكان له فصّاد فاحتاج إليه يوماً فقيل له إنه في حبس القاضي لحيف كان منه على امرأته . فأمر المنصور بإخراجه مع رقيب من رقباء السجن ليفصده ثم يعود إلى محبسه . وشكا الرجل إلى المنصور ما ناله من القاضي فقال : « يا محمد إنه القاضي !